الـــورد والـــنـــار

• عـــلاء الـــلامـــي*

بَسَطَ حمدان الشاطي كفَّه اليمنى السمراء المعروقة على هامة العجوز أم شبيب، ثم انحنى طابعًا قبلةً أهل الجنوب التقليديّة على ظاهر كفّه، واستقام معتدلاً بعد ذلك يتمتم بعبارات التحيَّة التي اتخذتْ شكلَ سيلٍ من التساؤلات المتلاحقة عن الصحّة وأحوالِ الدنيا وأخبارِ الأهل، ردّاً على سيلٍ مقابلٍ من النوع ذاته راحت العجوز تتأتئ به. لفَّ حمدان النصفَ الأسفلَ من «مزويته» الشقراء الخفيفة بحركة رشيقة من يسراه، جاعلاً إيَّاها على هيئة ذيل حصان ملمومٍ إلى الخلف، ثم خطا خطوتين باتِّجاه الجدار الطينيّ، واقتعد مخدّةً مربَّعة بيضاء أُعدتْ له خصيصًا.

ـ اللَّه بالخير!

هتف علوان الثجيل، زوجُ العجوز أم شبيب، بصوت ممطوط لا يخلو من ودّ ظاهر محيِّيًا الضيفَ، فوضع هذا الأخير كفّه على صدره وقال:

ـ اللَّه بالخير والسعادة!

كانت شمسُ الضحى مشوبةً بلذعةِ بردٍ خفيفة، غير أنَّ نورها البهيج كأنفاس الذهب ظل يَغْمر الموجودات. حَوصَ حمدان عينيه قليلاً وأَخْرج قوطيةَ تبغه الفضيّة اللامعة مستعملاً أربعةً من أظافر يمناه دفعةً واحدةً لفتحها، وشرع يَبْرم سيجارتَه الثالثة في هذا اليوم. وبالرُّغم من معرفته أنَّ مضيفَه علوان لا يدخِّن فإنَّه آثر القيام بالواجب، فقدّم له السيجارةَ التي انتهى لتوِّه من برمها، فتمتم علوان ببضع عبارات اعتذار وشُكْر وهو يَضْرب صدرَه عدّة مرّات بباطن كفّه المفتوحة في حركةٍ تعبِّر عن الامتنان، مذكّرًا صاحبَه بأنَّه هَجَرَ التدخينَ منذ بداية الحصار. فقال حمدان وهو يَقْدح زنادَه الأنيقَ الذي يعمل بالبنزين ويشعل سيجارته:

ـ اللَّه يحبّك يا بن الحلال!

ثم أَرْدف بنبرةٍ يكتنفها ضبابُ حكمةٍ خفيف:

ـ خبال! واحدنا يُحْرق صحته بيديه وبفلوسه!

ساد صمتٌ عامرٌ بالتساؤلات البيضاء والسوداء، حتى أوشكتْ سيجارةُ الضيف على الانتهاء، وراحت تقبِّل بلذعات جمرتها الضئيلة بشرةَ المقصّ المؤلَّف من السبّابة والوسطى. ها هو أخيرًا يَمْعس السيجارة في أصل الجدار المترب. حينها نهض علوان ليتناول من صبيّةٍ شعثاء الشعر، خرجتْ من الحجرة الطينيّة المقابلة، صينيَّةً عليها ثلاثةُ أقداح من الشاي الرائق اللَّون. قدّم علوان قدحًا للضيف، وأخذ آخر له، ودفع بالثالث والصينيّة نحو العجوز، التي أخرجتْ صرّةً صغيرةً من قماش أصفر، فسحبتْ منها فصًّا من سكّر القند، وقالت وهي تمدّ يدها وتضع الفصّ في الصحن الصغير تحت القدح:

ـ وهذا فصّ قند تركي منتاز للشيخ حمدان!

شكر حمدان المرأة العجوز على بادرة الحفاوة هذه، وأَمْسك القدحَ بيده اليمنى والفصَّ بإصبعَيْن من يسراه، وراح يَرْتشف الشايَ بطريقة «الدوش،» أيْ: يرتشف شيئًا من السائل الشفّاف المرّ، ثم يحلِّي مقدَّمةَ لسانه وشفتَيْه بالطعم الحلو المشحوذ لفصّ السكّر. لقد كادتْ هذه الطريقة في احتساء الشاي تختفي في العراق، لكنّ الحصار أحياها هي وسواها من عادات وأحزان.

لا ريب في أنَّ الثلاثة قد استمرأوا خواءَ وهواءَ خيمة الصمت التي وجدوا أنفسَهم متواطئين على نَصْبها. ولم تكن الرَّغبة في الهدوء والركون إلى موسيقى الأعماق وراء ذلك، بل الخوف من تكرار الجدالات العقيمة حول معضلة زواج عبد الكريم بن حمدان من الآنسة «ورد» حفيدةِ علوان الثجيل، والتي كادتْ تتحوَّل مجزرةً في مناسبات عدّة. وربّما كانت كلمة «مجزرة» مبالغًا بها، إذا

* ـ باحثٌ وشاعرٌ وقصّاص من العراق، يقيم حاليّاً في جنيف. صدَرَ له مؤخَّرًا ديوانٌ بعنوان **سيرة اليمامة البابليّة**.

علمنا أنَّ الأمر يتعلَّق بفسخ خطبة ورد من خطيبها عبد الكريم مرتين خلال شهر واحد. ويَعْرف الجميع أنّ الفسخ الأول كان مبرّرًا تمامًا لم يعترض عليه أحد، بل إنَّ أهل العروس شعروا بشيء من السرور حين تمَّ. فقد ألقي القبض على عبد الكريم بعد أسبوع من خطبته الفتاةَ وهو صحبةَ عددٍ من الجنود المتمرِّدين على الحكومة الذين جمعته بهم «المصادفةُ القحبة» كما سيصفها صاحبُنا فيما بعد، وكان معنى ذلك أنَّ عبد الكريم سينتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة خلال أيام قليلة لأنَّ الحكومة لا تتسامح إطلاقًا مع هذا الضرب من الناس، بل تبادر إلى إعدامهم رميًا بالرصاص ودون محاكمات في الغالب. وبعد يومين على اعتقال عبد الكريم، حضر حمدان الشاطي بنفسه إلى دار علوان الثجيل، وأَعْلن بكلمات مقتضبة لكنَّها مفهومة من قبل الجميع فَسْخَ الخطوبة.

وبعد أسبوعين خرج عبد الكريم من «حلق السبع» وعاد حيّاً يسعى إلى قريته. كيف تمّ ذلك، وأيَّة معجزة حدثتْ؟ قيل في بدء الأمر إنَّه لم يكن مع المجموعة المعتقلة أصلاً، وإنَّ شخصًا آخر يَحمل الاسمَ نفسَه كان معهم واعتُقل. وتسربتْ فيما بعد كلماتٌ مجنَّحة بالمخاوف من بيت آل ثجيل أومأتْ إلى احتمالاتٍ منها تقديمُ رشوة ثقيلة، وإلى تخطيط متقن لعمليَّة تخليص عبد الكريم قام بها نفرٌ من أبناء عشيرته ونُفِّذَتْ بكتمان ومهارة لدرجة أنَّ قطرة واحدة من الدم البشريّ لم تُسْفَكْ. المهمّ في الأمر أنَّ آل الشاطي تراجعوا عن فسخ الخطوبة، وثبّتوها من جديد.

كان هذا عن المرَّة الأولى التي فُسختْ فيها خطبةُ عبد الكريم لورد. أمَّا الثانية فكانت قبل أيام قليلة فقط، وسببُها أنَّ حضرة الخطيب لاحظ ـ في لمحة عابرة إلى وجه حبيبته ـ أنَّها حولاء! فسارع كعادته إلى حافظة أسراره، عمّتِه زكيَّة، وقال لها ذلك، محاولاً تخفيفَ وقع الخبر عليها باستعماله عبارة «شوية حَوَلْ خفيف.» ولكنَّ العمَّة زعمتْ أنَّ الخطيبة عوراء، وأنَّ ثمَّة نقطةً بيضاءَ بمساحة حبّة العدس في عينها اليمنى، إضافةً إلى شيء من عرج خفيف، و«مصايب أخرى!» ولم يكن المبادِرُ إلى فسخ الخطوبة هو عبد الكريم، الذي فوجئ بقائمة العيوب الجديدة، ولا كان والدُه حمدان، بل جدّه «خيون الشاطي» الذي بلغ من العمر عتيّاً ولكنَّه وَجَدَ مَنْ يُنهضه ويُسرج له حصانَه ويُرسل به إلى آل الثجيل ليَفْضح محاولتهم تزويجَ ابنتهم «العمياء» لحفيده عبد الكريم! وفَسَخ الجدُّ الخطوبةَ للمرة الثانية، وسط ذهول الجميع في دار آل الثجيل، خلا «ورد» نفسها التي غرقتْ في نوبة ضحك هستيريّ لم يَفْهم أحدٌ لها سببًا معقولاً.

كان الشيخ حمدان قد انتهى من احتساء قدح الشاي واستعدّ لطرح ما جاء من أجله على العجوزَيْن. وبعد أن بَسْمل، وحَوْقل، ولعن الشيطانَ ثلاثًا، ذكَّر سامعيه بأنَّ والده خيون قد تجاوز المائة من عمره منذ سنين عديدة، محاولاً الإيحاءَ لسامعيه بأنَّ العجوز خيون قد أصبح خَرِفًا لا يجب أن يَزْعل منه أحدٌ وأن يَحْمل كلامَه على محمل الجدّ. وقال الشيخ حمدان كلامًا كثيرًا آخر بدا أنْ لا علاقة لبعضه بما جاء من أجله، ألا وهو إصلاح ذاتِ البيْن وإعادةُ الخطوبة كما كانت... خصوصًا، كما قال خاتمًا مداخلتَه التي بدتْ طويلة أكثر مما ينبغي، «خصوصًا، أنَّ العريس شاريكم يا جماعة الخير!» وهنا هتفت العجوزُ أم شبيب بصوتٍ ناعمٍ مفعم بالقوّة والطيبة في آن واحد منادية باسم ورد مرتَيْن. مدَّت الفتاة رأسها من حجرة طينيّة قريبة، فدعَتْها جدَّتها إلى القدوم. اقتربت الفتاة بخطوات وجلى. ألقت التحيةَ على الجالسين. كانت ترتدي نفنوفًا مشجّرًا فضفاضًا يَغْلب عليه اللَّونان الأبيض والرمّانيّ تناثرتْ عليهما دوائرُ سوداء، وقد عَصَبَتْ رأسَها بمنديل سمائيّ. فسحتْ لها جدَّتُها مكانًا وطلبتْ منها الجلوس، ففعلتْ.

تحوَّلتْ أم شبيب إلى الضيف. وبعد مقدّمة طويلة عن الزين والجمال والحُسْن الربَّاني، طلبتْ من الشيخ حمدان أن ينظر في وجه الفتاة. فصلَّى هذا الأخير على النبيّ العربيّ الكريم وعلى أهله الطيِّبين الطاهرين، ثم حوص عينَيْه ووضع كفّاً مفتوحةً يقي بظلِّها عينيْه من النور الساطع، ونظر إلى وجه ورد، التي راح قلبُها الصغير ينتفض كحمامة في شبكة صيّاد، وتلوَّن وجهُها بمزيج غامض من السمرة وحمرة الخجل. فجأةً، فتحتْ عينَيْها السوداوَيْن على اتّساعهما، وألقتْ نظرة خاطفة على وجه الشيخ حمدان، ونهضتْ تَكْتم ضحكةً، وعادت من حيث أتت. كاد الشيخ حمدان يصيح آمرًا الفتاةَ بالعودة إلى مجلسها ليتملَّى وجهَها وعينَيْها،

لكنَّه حوَّل الحرفَ الأولَ الذي انطلق من أسر العدم إلى تسبيح قصير، ثم انتقل من التسبيح إلى دعاء بالستر على الفتاة، وسكت بعد ذلك سكوتَ صنمٍ لا يرين.

سألته العجوزُ أمّ شبيب إنْ كانت العروس حولاءَ أو عوراءَ أو عمياءَ... مثلما «افترَيْتم يا آل شاطي؟» فلم يعترض الشيخ أو يحتجّ على الاتِّهام بالافتراء، بل وجد نفسَه يُقْسم بالإمام العبّاس قسمًا غليظًا أنَّه لم ير زينًا وحُسْنًا كما رأى قبل قليل في وجه «وردتكم يا آل ثجيل.» لكنَّه وجد لسانَه يضيف بأنَّ للبنيّة عَيْنَيْن ما شاء اللّه وكان، بس.. «بيهن شويَّة حَوَل!»

ـ هذي خوصة الزين، يا شيخ حمدان!

وخوصة الزين شيء من حَوَلٍ خفيفٍ، إذا مازج سوادَ عينينْ وسيعتَيْن زادهما ملاحةً على ملاحةٍ وبهاءً على بهاء. وهنا بالضبط يَكْمن السرُّ الخفيّ، أو الذي كان خفيّاً، الذي جعل الفتى عبد الكريم يهيم بالفتاة ويَلْعن الساعة التي حدّثَ فيها عمّته عن موضوع الحَوَل الخفيف.

بعد أن وضّحت العجوزُ أمّ شبيب للضيف ما عنته بخوصة الزين بدا أنّ كل شيء عاد إلى سابق عهده، وأنَّ الشيخ قد نجح في مهمّته أيَّما نجاح. وقد دار هذا الخاطر فعلاً في رأس صاحبنا فنهض شاكرًا، مذكّرًا بأنَّ موعد العرس سيظلّ كما كان، أيْ يوم الخميس القادم على ليلة الجمعة.

ـ عرس!؟

تساءلتْ أم شبيب باستنكار ثم أردفتْ: «كيف؟ ومن أين فهم الشيخ إنَّنا وافقنا على إعادة تثبيت الخطبة؟» هنا شعر الشيخ بالدوار والخيبة في آن واحد، وها هو يعود إلى نقطة الصفر من جديد. عاد إلى جلسته يعتريه شيء من الضيق، وشرع في عملية ملاينة واسترضاء جديدة. وكان كلّما شعر بالكلل حاول الاستنجاد بأبي شبيب، غير أنَّ هذا الأخير ظلَّ نافلاً وبعيدًا عن الموضوع كلّه. وأخيرًا أعلن الشيخ حمدان أنَّه يتفهَّم الضرر الذي ألحقته أسرتُه بآل ثجيل، وأنَّه مستعد لتنفيذ كل طلب يتقدَّمون به.

ـ عندنا طلب واحد!

هتفتْ أمّ شبيب بصوت مرتفع، وهو ما أَحْرج زوجَها فغمزها غمزةً خفيفة فأردفتْ بصوت ناعم خفيض:

ـ طلبنا منكم واحد، هو لازم ابنكم عبد الكريم يشيل عروسته ويمشي بيها من دارنا لداركم!

وسيروي الشيخ، بعد عدّة أشهر على زيارته تلك لآل الثجيل، أنَّه حين سمع العجوزَ أمَّ شبيب تقول ما قالت وَجَدَ يده تمتدّ في حركة عفويَّةٍ إلى خنجره. ولكنَّه أَفْلح في كبت غضبه، ونهض خارجًا من الحوش بخطواتٍ بعيرٍ هائجٍ.

لم تَطُل القطيعةُ بين الأسرتَيْن، لا بل إنَّ القطيعة لم تَحْدث أصلاً. ففي مساء اليوم نفسه جاء عبد الكريم إلى دار خطيبته، وبعد عدّة طرقات متلاحقة ومضطربة على الباب اندفع داخلاً مجتاحًا الحوشَ الواسعَ وقصد الديوانيَّة، فصادفته ورد وهي تَحْمل آنيةً فيها بقايا طعام. أوقف الشابُّ الفتاةَ. أمسك بها من زنديها بيديه كلتيهما. حدّق مليّاً إلى وجهها. إلى عينيها. بصمت. دون أن يَطْرف له جفن. ركّز نظره بحدّة وكأنَّه يريد أن يخترق كيان الفتاة ويدخل إلى أعماقها. الفتاة بدورها تصنَّمتْ دون حراك. شعرتْ بالمفاجأة تستحيل خوفًا فرعبًا. أطلقها أخيرًا حين بلغ سمعَه صوتُ العجوز أمّ شبيب ترحِّب به، وولج باب الديوانيَّة. لم يستطع أن يتعرَّف على الموجودين لكثافة العتمة التي فاقم شدتَها الضوءُ الساطعُ في الخارج. ألقى التحيَّة وظلّ واقفًا لثوانٍ ريثما تعتاد عيناه العتمةَ. وأخيرًا رأى العجوز وزوجها وثلاثة رجال آخرين لم يستطع تمييزَ ملامحهم تمامًا.

ـ خير يا طير؟!

ألقت العجوز سؤالها بنبرة فيها من الهزء والسخرية مقدارَ ما فيها من الجديَّة والاستنكار. فتلعثم عبد الكريم وأُرتج عليه القول، وأخيرًا وبعد عناءٍ تماسكَ وقال:

ـ خالة أمّ شبيب، أنا سمعت شروطكم وأنا موافق!

كان يلفظ القافَ في الكلمة الأخيرة جيمًا، كأيّ جنوبيّ أصيل من عَرَبِ العراق. أمّا الضمير «أنا» فكان ينطقه مبدوءًا بهمزة مفتوحة جيدًا ومنتهيًا بهاء قصيرة على عادة أهل «العمارة.» نكست العجوزُ رأسَها، وقالت كأنّها تكلّم جنيّاً يَرْقد تحت الأرض:

ـ وأبوك وجدّك؟

كان السؤال محرجًا للشابّ، ولكنّ نجدةً غيرَ متوقّعة جاءت على حين غرّة من العجوز أبي شبيب الذي قال مطمئِنًا زوجتَه:

ـ إنْ شاء اللّه يصير خير! المهم العريس موافق.

وكان مساءً رائقًا. وقد استعدّت للعرس القرى الثلاثُ المتقابلة: «الريانة» وهي قرية العريس، و«تلّ القداح» وهي قرية العروس وفيها أيضًا محطّة تصفية وتعقيم المياه الرئيسة والتي تضخّ المياهَ إلى القرى المحيطة وإلى مركز المحافظة على مسافة ثلاثة وأربعين كيلومترًا، و«العبّاسيّة.» والحقّ أنّ بعض الناس نظر إلى القرى الثلاث كقرية واحدة تتوسّع وتنمو باطّراد كبقعة زيت في بحيرة واسعة.

دخل عبد الكريم طوال الأسابيع التي سَبَقت العرسَ في مواجهات وصدامات كثيرة ومرهقة، إلى درجةٍ دفعتْه إلى اليأس في غير مناسبة، ولكنّه و«بقوّة العشق،» كما دأب على أن يَهْمس لنفسه، استطاع الصمودَ والوصولَ إلى حيث هو الآن: عريسًا يختال بين الناس بجميل الملبوس وغالي السلاح (كان يعلّق على كتفه كلاشنكوفًا صينيّاً جديدًا).

ثم حانت اللّحظة التي طالما أجّل عريسُنا التفكيرَ فيها، وهي لحظةُ حمله لحبيبته من دار أبيها إلى بيت الزوجيّة. ضحك البعض، وهمز البعضُ الآخر ولمزوا بأقوال وحركات فيها من السخرية ومن المرح أكثر مما فيها من الخبث وسوء الطويّة. ومن هؤلاء نَذْكر ما قاله الحاج شبوط الراضي، المعروفُ بتلميحاته ذات المذاق الفاجر، ناصحًا العريسَ وهو يستعدّ لحمل العروس:

ـ شيل، وليدي، شيل. شيلها يوم، وهي اتشيلك دوم!

وبدأتْ مسيرةُ الزفاف بطيئةً متثاقلةً من دار آل ثجيل. وما إنْ تجاوزتْ بضعةَ بيوت حتى فوجئ الجمع المحتفل بمجموعة من الشباب الحديثي الزواج، وكان بينهم بضعُ الكهول، يَخْرجون من بيوتهم وكلٌّ منهم يَحْمل زوجتَه وينضمّ إلى المسيرة وسط ضحكات القرويّين المرحة وتعليقاتهم. مرّتْ دقائق وشَرَعَ عددٌ من الفتيان بإنشاد العبارة الموسقة التالية: «شوف الورد شايل ورد.. شوف الورد ويشم ورد.» وسرعان ما طفق الجميع بترديدها. وكان مساءً رائقًا كقنديل أحمر في أعماقِ كهفٍ حزين. الشباب يقتربون من محطة تصفية وتخزين المياه الصالحة للشرب، حاملين الحبيباتِ على العواتق وبين الأحضان. السماء هادئة والهواء فاتر يكاد يسيل كدمعة دافئة بالرُّغم من ضجيج المحتفلين. اقتربت المسيرة من بوّابة المحطة، وهرع أحدُهم إلى شجيْرات الجوري والراسقي عند البوابة ليَقْطف بعضًا منها. عاد الشابّ وطلب من «أزواج العشّاق الأزواج» التوقُّف للاستراحة. توقف الجميع. راح الشابّ يوزّع الوردَ وأزهارَ الراسقي عليهم. فجأةً دوّى صوتٌ غامض في البعيد، وفي ثوانٍ قليلة اشتدّ الصوتُ وتصاعد حتى لم يعد أحد من الناس قادرًا على سماع الآخر. ثلاث طائرات حربيّة أميركيّة قدمتْ من الجنوب. ارتجّت الأرضُ بعنف، وصَمَّ المسامعَ دويٌّ هادرٌ مخيف. ثلاثةُ انفجارات تلاحقتْ بسرعة مرعبة ثم.. صَمَتَ كلُّ شيء. اختفت الطائرات الثلاث. كانت أجسادُ الرِّجال والنساء الممزّقة المتناثرة قد اختلطتْ بعضُها ببعض إلى درجة تقشعرّ لها الأبدان. بدأ الأنين والصراخ يتعالى. اندفعت المياهُ من الخزّانات المبقورة إلى حيث جثثُ الفلاحين الممزّقة والمخلوطة بالجمر والشظايا الساخنة والورود. كان عبد الكريم قد انكفأ وسقط حاملاً ورد. وكانت ورد تتمسّك برقبته وتحتضنها بقوّة، لكنّ شظية من الصاروخ أطارت رأسها، رأسَها الصغيرَ الجميلَ بعينَيْه الوسيعتين، ورمت به إلى مسافة بضعة أمتار. وها هو الرأس الصغير، مذهولاً بالموت والماء والجمر، يستقرّ بين وردتين من دماء شفيفة وصمتٍ طويل.

جنيف